الصراع اللغوي والتوتر الاجتماعي: قراءة في ومضة "صراع" للحسين بري

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

لا يقتصر الصراع اللغوي على الصراع بين اللغات المختلفة التي قد تسعى إحداها للسيطرة على الأخرى أو فرض هيمنتها عليها أو غزوها وإفقادها هويتها أو إخراجها عن عزلتها أو إنزالها إلى مرتبة اللغة غير الرسمية، كأن تكون اللغة الرسمية المستعملة في مؤسسات الدولة مثلا لغة ما وتكون اللغة الجارية على ألسنة الناس لغة أخرى. فهذا الصراع موجود داخل اللغة الواحدة بين اللهجات المختلفة على سبيل المثال – ولا تقتصر اللهجات على الدول، وإنما توجد داخل الدولة الواحدة وتقترن هنا باللكنة أكثر، مثلما يحدث لشخص ريفي من الصعيد أو الوجه البحري مثلا في مصر ينتقل للقاهرة وينشب داخله صراع بين استعمال لكنته الريفية واستعمال اللكنة القاهرية. وقد يدل هذا الصراع على الشد والجذب بين مراكز القوى اللغوية – إذا جاز لنا استعمال مثل هذا التعبير – كأن يكون بين شخصين ينتميان لدائرتين مختلفتين من دوائر مستعملي اللغة، مثلما بين "مثقف" و"غير مثقف". ونقول في مصر مثلا: "النبي" عربي" أو "كلِّمني بالعربي" عندما يستعمل الشخص الذي أمامنا لغة عربية صعبة الفهم أو يستمل مفردات لغوية لا تشيع في اللهجة المصرية أو

يستعمل لغة تجريدية لا تتماس مع الواقع والموقف الذي يدور فيه الكلام. كان لابد من كتابة هذه المقدمة الطويلة نوعا على دراسة تتناول ومضة قصصية واحدة، واستدعت هذه الومضة كتابة هذه المقدم، لأن القاص المغربي الحسين بري يوظِّفُ هذا الصراع توظيفا جيدا في ومضته ويجعل عنوانها "صراع" للتأكيد على هذا النوع من الصراع الذي يتجلَّى بقوة في نص الومضة. وها هو نص الومضة:

صراعٌ

حيّاه بلغتِه، أصرّ الأخرُ ردها بلغتِه، نَشَبَ صراعٌ بينهما.

تجسّد هذه الومضة الصراع اللغوي كواقع اجتماعي وثقافي في حياتنا. ولا يقتصر مفهوم اللغة هنا على لغتين مختلفتين كاللغة العربية والإنجليزية مثلا، بل قد تشمل طرق التعبير المختلفة داخل اللغة الواحدة، كأن يكون الشخصان في الومضة هنا ينتميان إلى ديانتين مختلفتين ويستعملان نفس اللغة وينتميان لنفس الأرض والوطن، أو أن يكونا من خلفيتين ثقافيتين واجتماعيتين مختلفتين كساكن الريف وساكن المدينة مثلا، أو يكونا ينتميان لتيارات فكرية أو حزبية مختلفة لكل منها أيديولوجيته المغايرة لأيديولوجية الآخر، وما إلى ذلك، مثل "-السلام عليكم، - صباح النور". "-صباح الخير يا رفيق، - السلام عليكم يا عبد". "-العواف، - وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". "- Bonjour – العواف يا أختي". "- عمتم صباحا، - صباح الخير". وي كل هذه الأنواع

من التحية، يستعمل الطرف الأول طريقته المعتادة في التعبير عن التحية، ويشعر الطرف الثاني بأن هذه الطريقة في التعبير غير مناسبة لو أو تنتقص من طريقته الخاصة في التعبير أو يشعر بأن الطرف الأول يحتقره أو يريد أن يفرض عليه تحية معينة ويلفت انتباهه بطريقة غير مباشرة إلى أنه يتميز عنه دينيا أو اجتماعيا أو ثقافيا وما إلى ذلك.

تبدأ الومضة بالشخص الأول الذي يلقي التحية على الشخص الثاني ويستعمل في هذه التحية طريقته وصيغته الخاصة في إلقائها. ويبدو أن الطرف الثاني لا يستسيغ هذه التحية أو أنه يرى فيها إهانة أو تجريحا أو تقليلا من قدره أو تهكما عليه وما إلى ذلك من تفسيرات، ويتضح ذلك من الفعل "أصرَّ" الذي يوحي بأن الشخص الثاني يستعمل أسلوبه الخاص في الرد على التحية كنوع من أنواع مقاومة هيمنة الشخص الأول أو تسلطه أو وقاحته أو تقعُّره وفذلكته أو تعالمه، بحيث يستخدم الشخص الثاني اللغة بطريقة تسلط الضوء على وجوده اللغوي وهويته التعبيرية وأعرافه الاجتماعية التي يلتزم بها في التحية والرد عليها.

وتأتي نهاية الومضة لتسلط الضوء سياقيا على الصراع المذكور في العنوان وفي متن الومضة ذاتها. فالصراع اللغوي يتحول إلى صراع حقيقي ربما يصل إلى الشجار والقتال. وتسلط هذه الومضة على اللغة بوصفها قوة لفظية يمكنها أن تتحول إلى قوة حقيقية. فكما أن القوة الحقيقية يمكنها أن تتحول إلى قوة لفظية كما نرى مثلا في خطابات قادة الدول

الكبرى وطريقة مخاطبتها للدول الصغرى وتعليقها ببيانات سياسية على أوضاع لا تمت لها بشيء في دول أخرى أضعف منها، يتحوّل التوتر اللغوي بين الشخصيتين في هذه الومضة وما ينتج عنه من صراعات قوى اجتماعية وثقافية ودينية إلى صراع يستعرض القوى البدنية بينهما ومحاولة كلاهما التغلُّب البدني على الآخر كي يثبت له أن الصراع اللغوي لا ينحصر في استعمال الكلمات وإنما لابد من برهنته على أرض الواقع بصراع حقيقي.

وعندما نتأمل هذه الومضة الرائعة والمتميزة فنيا نجد أنها تخلو من المفارقة بالمعنى المألوف الذي يريد النقاد أن يفرضوه على كل الومضات وأن يلزموا كتّاب الومضة بالمفارقة كتقنية أساسية من تقنيات فن الومضة. فهذه الومضة تثبت لنا أن المفارقة ليست تقنية لازمة في الومضة، فهي قد تتحقق في ومضات يستلزمها سياقها وقد لا تتحقق في ومضات أخرى لا يقوم سياقها على فكرة المفارقة أو يتخذها لبنة من لبنات بناء الومضة ومعمارها الفني.

والمدى الزمني في هذه الومضة قصير جدا يتمثَّل في الزمن الممتد ما بين التحية وردَّها بلغة/لكنة/لهجة مختلفة وبداية الصراع. وتشتمل هذه الومضة على شخصيتين يمثلان طرفي الصراع اللغوي هنا. ولا يذكر الراوي هاتين الشخصيتين، وليس في حاجة لأن يذكرهما، لأنهما موجودان في الومضة بصفتهما اللغوية وكونِ كلّ منهما يستعمل لغة

مختلفة عن الآخر أو بالأحرى أسلوبا مختلفا في التحيَّة. وبداية الومضة بداية حدثيَّة: فبالرغم من أن الفعل "حيَّاه" يدل على مجرد قول وليس حدثا في حد ذاته، نعتبره فعلا حدثيا لسببين: يتمثَّل السبب الأول في أن هذا الفعل فعل من أفعال الأداء performatives التي تهدف لأداء فعل معيَّن وهو تحقق مضمون التحية – الخير، السلام، العطر، الخ – في حياة من يتلقى التحية، ويتمثل السبب الثاني في أن هذا الفعل بما يشمله يتسبب في الصراع وفي الحدث الذي تجسده الومضة. ونهاية الومضة نهاية مفتوحة، بمعنى أنها تمثِّل ذروة الصراع اللغوي الذي تحول من قول إلى فعل تتركه الومضة مفتوحا ولا تحدد نتيجته. وعنوان الومضة مستقل عن نصِّها بنائيا، بمعنى أن الصراع متجسِّد بالفعل لفظا ومعنى وحدثا في الومضة ذاته، ومن هنا يكتمل نص الومضة بعيدا عن العنوان ويأتي العنوان لاحقا – بعد اكتمال النص – ليقوم بإبراز أهم سمة فيه وهي الصراع اللغوي والبدني الذي يدور بين الشخصيتين.